Sana'a University Journal of Human Sciences مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 5 | Page 506 – 517 |2026 | https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

The Essence of Mind in the Atheistic Perspective

Manal Taha Ahmed Abdul Mumen Al-Jarash [1,*]
[1]Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities - Sana'a University, Sana'a, Yemen.
***Corresponding author:** *managaga1@gmail.com*

Keywords

1. Mind
2. Atheistic Perspective
3. Darwinian Theory
4. Materialism
5. Consciousness
6. Neuroscience

Abstract:

This study examined the scientific foundations upon which the atheistic perspective relies in explaining the nature of the mind, and evaluated its ability to provide an explanation for mental phenomena. The study aimed to review and examine the scientific evidence presented by the atheistic perspective through Darwinian theory, atomic theory, and contemporary empirical evidence. The study followed an analytical-critical methodology in examining this evidence. The study found that the atheistic perspective relies on evolutionary theory, which views the mind as a product of natural selection, and atomic theory, which reduces the mind to chemical and physical interactions, in addition to empirical evidence from neuroscience linking brain activity to mental states. However, the study revealed limitations in these explanations. Darwinian theory faces difficulties in explaining abstract mental capacities that transcend survival requirements, the structural complexity of the brain, and the evolutionary gap between humans and great apes. Atomic theory encounters problems in explaining the unity and coherence of conscious experience and the subjective nature of consciousness. The study concluded that scientific evidence does not exclusively support the materialistic atheistic perspective; rather, it indicates that the mind transcends what can be explained through purely material processes.

Sana'a University Journal of Human Sciences مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 5| Page 507 – 517 | 2026 | https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

ماهية العقل في الرؤية الإلحادية

منال طه أحمد عبد المؤمن الجراش [1]*،

[1]قسم الفلسفة ، كلية الآداب - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن.

***المؤلف:** manaqaqa1@gmail.com*

الكلمات المفتاحية

1. العقل
2. الرؤية الإلحادية
3. النظرية الداروينية
4. المادية
5. النظرية الذرية
6. علم الأعصاب

الملخص:

تناولت الدراسة الأسس العلمية التي تستند إليها الرؤية الإلحادية في تفسير ماهية العقل، وتقييم مدى قدرتها على تقديم تفسير للظواهر العقلية، وهدفت إلى فحص الأدلة العلمية التي تقدمها الرؤية الإلحادية، من خلال النظرية الداروينية والنظرية الذرية والأدلة التجريبية المعاصرة، واتبعت المنهج التحليلي النقدي في فحص هذه الأدلة. وتوصلت إلى أن الرؤية الإلحادية تعتمد على النظرية التطورية التي ترى العقل نتاجًا للانتخاب الطبيعي، والنظرية الذرية التي تختزل العقل إلى تفاعلات كيميائية وفيزيائية، إضافة إلى أدلة تجريبية من علم الأعصاب تربط النشاط الدماغي بالحالات العقلية، لكن الدراسة كشفت عن قصور في هذه التفسيرات، حيث تواجه النظرية الداروينية صعوبة في تفسير القدرات العقلية المجردة التي تتجاوز متطلبات البقاء، والتعقيد البنيوي للدماغ، والفجوة التطورية بين الإنسان والقردة العليا، كما تواجه النظرية الذرية مشكلات في تفسير الوحدة والترابط في التجربة الواعية، والطبيعة الذاتية للوعي، وخلصت الدراسة إلى أن الأدلة العلمية قاصرة في دعم الرؤية الإلحادية المادية؛ إذ إن بعضها يشير إلى أن العقل يتجاوز ما يمكن تفسيره من خلال العمليات المادية البحتة.

المقدمة:

اتخذت محاولات فهم ماهية العقل علميًا منحًا اختزاليًا يرى العقل نتاجًا للعمليات الدماغية المادية؛ إذ تنطلق الرؤية الإلحادية من افتراض أن الكون بأسره –بما في ذلك العقل والوعي– يمكن تفسيره من خلال العمليات المادية دون الحاجة إلى افتراضات ميتافيزيقية، ومع تطور علم الأعصاب وتقنيات التصوير الدماغي، ظهرت معطيات جديدة حول العلاقة بين النشاط العصبي والحالات العقلية، وتزعم الرؤية الإلحادية أن المعطيات العلمية الحديثة تدعم موقفها في اختزال العقل إلى الدماغ، وهنا يطرح السؤال حول مدى صحة هذا الزعم، وما إذا كانت الأدلة العلمية تدعم فعلًا الموقف الإلحادي المادي في تفسير ماهية العقل.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس:

هل ينجح التفسير الإلحادي المادي في تقديم تفسير لماهية العقل؟

ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

1. ما الأسس العلمية التي يقوم عليها التفسير المادي للعقل؟
2. ما إشكالات هذا التفسير في ضوء النقد الفلسفي؟
3. هل الأدلة التجريبية في علوم الأعصاب كافية لتفسير ماهية العقل؟

فرضيات الدراسة:

تعتمد الدراسة على الفرضيات الآتية:

يقوم التفسير الإلحادي على رؤية مادية اختزالية للعقل.

توجد فجوة تفسيرية بين العمليات الدماغية والتجربة الذاتية الواعية.

الأدلة العلمية المعاصرة لا تكفي لإثبات أن الوعي ظاهرة مادية بالكامل.

أهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى تحليل التفسير الإلحادي المادي لماهية العقل، من خلال فحص الأسس العلمية التي يستند إليها في كلٍّ من النظرية التطورية والنظرية الذرية، والوقوف على مدى كفاية هذا التفسير في تفسير الظواهر العقلية، وكذلك الكشف عن الإشكالات المرتبطة به، ولا سيما ما يتعلق بالفجوة التفسيرية بين العمليات الدماغية والتجربة الواعية.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية الدراسة في كونها تلامس موضوعًا مركزيًا في علاقة الفلسفة بالعلوم الطبيعية، وتسعى إلى إظهار حدود التفسير المادي للعقل، وفتح المجال لمقاربات أكثر شمولًا، كما تسهم في النقاش المعاصر حول الإيمان والإلحاد، وتسهم أيضًا في توضيح الأسس التي ينبغي أن تبنى عليها السياسات التربوية والقانونية.

حدود الدراسة ومحدداتها:

تحددت الدراسة بتحليل الأدلة العلمية والفلسفية المتاحة في الأدبيات المعاصرة، دون التوسع في الجوانب اللاهوتية أو المقارنات الدينية.

التعريفات الاصطلاحية والإجرائية لمفاهيم الدراسة:

اشتملت الدراسة على المصطلحات الآتية:

–العقل: مجموعة العمليات الإدراكية والوظائف المعرفية الواعية.

–الرؤية الإلحادية: منظور مادي يختزل الوعي في العمليات الدماغية الفيزيائية.

-التفسير المادي: منهج يرد جميع الظواهر إلى المادة وخصائصها.

-التطورية: تشير إلى النظرية العلمية التي تفسر نشأة الكائنات الحية وتطورها من خلال الانتخاب الطبيعي والتغيرات الوراثية التدريجية عبر الزمن (Darwin, 1871)، ويُقصد بها في هذه الدراسة التفسير الذي يرى أن العقل البشري نتاج لعمليات تطورية بيولوجية.

-النظرية الذرية: تُعرَّف أنها تصور علمي يردّ جميع الظواهر في الكون إلى تفاعلات فيزيائية وكيميائية بين الجسيمات الأساسية (Feynman, 1963)، ويُستخدم المصطلح في هذه الدراسة للدلالة على الاتجاه الذي يختزل العقل والوعي في العمليات المادية للدماغ.

منهجية الدراسة وإجراءاتها:

اتبعت الدراسة المنهج التحليلي النقدي، من خلال مراجعة الأدبيات العلمية والفلسفية المتعلقة بالعقل، ومناقشة التفسير المادي في ضوء الإشكالات المطروحة في فلسفة العقل.

محاور الدراسة:

أولًا: استناد الرؤية الإلحادية إلى النظريتين التطورية والذرية:

تعتمد الرؤية الإلحادية على العلم في تفسيرها للعقل، باستنادها إلى النظرية التطورية والنظرية الذرية، ويصبح العقل طبقًا للنظريتين، إما نتاجًا عرضيًا لعملية عشوائية كما تزعم النظرية التطورية (Darwin, 1871)، أو نتاجًا لعمليات الدماغ المادية كما تزعم النظرية الذرية (Feynman, 1963).

فالعقل، بكل ما يتضمّنه من وعي وتفكير واستدلال، ليس معجزة خارقة، بل هو نتيجةٌ تدريجية لعملياتٍ انتقائيةٍ طبيعيةٍ شكّلتها الحاجة إلى البقاء والتكاثر، فقد نشأت ملكاتنا العقلية لخدمة أغراض تطورية محدّدة، وليس لأنّها مُنحت لنا لغرضٍ كوني أو تصميمٍ إلهي، كما ذكر "دوكينز" في كتابه "صانع الساعات الأعمى" (دوكينز، 2001، ص316).

وهو ما أكده عالم النفس التطوري الملحد "ستيفن بينكر"؛ إذ ذهب إلى أن "العقل هو نظام من الأعضاء صُمم بواسطة الانتخاب الطبيعي لحل المشكلات التكيفية التي واجهها أسلافنا الصيادون الجامعون" (Pinker, 1997, p. 21)، وهذا المفهوم يختزل العقل إلى مجرد أداة بيولوجية للبقاء مجردة من أي قيمة متأصلة أو غرض سامٍ.

وقد اتسم منهج "داروين" -كما يشير إليه الباحثون- بكونه "منهجًا طبيعيًا وماديًا بحتًا، يستند إلى ملاحظة الظواهر الطبيعية" (Darwin and Religious Thought, Northwestern University)، وهذا التوجه يعني أن "داروين" فسر العقل والوعي ضمن الإطار المادي الصارم للانتخاب الطبيعي، دون الحاجة إلى افتراض وجود قوة خارقة أو تصميم ذكي. وهكذا، أصبح العقل في النظرية الداروينية مجرد أداة بيولوجية تطورت لخدمة غايات التكيف والبقاء، كما تطورت الأطراف والأعضاء الأخرى، فيقول "داروين": "لا يوجد سبب يجعل القدرات العقلية التي يتمتع بها الإنسان تُعتبر استثناءً من قانون التطور العام، فكما تطورت أعضاء الجسد المادية بفعل الانتقاء الطبيعي، كذلك تطورت ملكاتنا العقلية تدريجيًا من حالات أكثر بساطة، إنّ العقل والغرائز نتاجٌ للتدرج التطوري نفسه الذي شكّل سائر أعضاء الكائن الحي" (داروين، 1998، ص 112).

والتطور التدريجي وتعقيد البنى العصبية على مدى ملايين السنين، أدى إلى التنوع في أحجام الأدمغة ووظائفها بين الأنواع المختلفة، خاصة في الفقاريات" (Evolution of the brain, Wikipedia).

وقد أظهرت دراسات حديثة أن "الرئيسيات تطورت نحو توسع قشري في مناطق الدماغ المرتبطة بإنتاج السلوك المعرفي المعقد" (Gonzales et al., 2025, p. 59)، وهذا التوسع القشري لم يكن مجرد زيادة كمية في حجم الدماغ، بل كان تحولًا نوعيًا في القدرات المعرفية طبقًا للداروينية، وكان سبب تطور الدماغ البشري بهذا التعقيد تكيفيات وفرتها القدرات المعرفية المتقدمة، فالقدرة على التخطيط، والتواصل اللغوي المعقد، والتفكير المجرد، وحل المشكلات، والتعاون الاجتماعي، كلها عوامل منحت أسلافنا ميزة تكيفية هائلة في مواجهة التحديات البيئية المتغيرة كما تزعم الداروينية، كما أكد علماء الأنثروبولوجيا التطوريون أن " البشر الأوائل في مواجهتهم لتحديات بيئية جديدة تطورت لديهم أدمغة أكبر وأكثر تعقيدًا" (Brains, Smithsonian Institution's Human Origins Program).

يظهر علم الأعصاب التطوري كيف أن تعقيد الوعي يرتبط مباشرة بتعقيد الجهاز العصبي عن طريق الأنواع المختلفة، فالكائنات ذات الأدمغة الأكثر تعقيدًا تُظهر سلوكات أكثر تعقيدًا ودلائل على وعي أعمق، وذكر "جون أليمان" في دراسته حول التطور العصبي كيفية نشوء العقل عبر التطور، حيث قال: "يمكننا تتبع تطور القدرات العقلية من خلال دراسة التعقيد المتزايد في الأجهزة العصبية عبر السلم التطوري، مما يؤكد أن العقل هو نتاج للتطور البيولوجي للدماغ" (Allman, 2000, p. 154).

وقدمت الفيلسوفة وعالمة الأعصاب "باتريشيا تشيرشلاند" تحليلًا عن كيفية تطور الوعي عبر السلم التطوري، قائلة: "يمكن فهم نشوء الوعي من خلال دراسة التطور التدريجي للأنظمة العصبية، من أبسط أشكال الاستجابة الحسية إلى الوعي الذاتي المعقد" (Churchland, 2002, p. 127).

وتقوم النظرية الذرية على الافتراض الجوهري بأن "كل ما هو موجود يمكن تفسيره من حيث خصائصه الفيزيائية والقوانين التي تحكمها" (Reductive Materialism in Neural Basis of Consciousness, Number Analytics)، وهذا يعني أن الكون بكل ما فيه من ظواهر معقدة –بما في ذلك العقل البشري والتجربة الذاتية والأفكار المجردة– قابل للاختزال التام إلى قوانين الفيزياء والكيمياء التي تحكم حركة الجسيمات الأولية.

وبذلك، تنظر النظرية الذرية إلى الدماغ البشري على أنه كتلة معقدة من الذرات المنتظمة في بنى كيميائية محددة، تتفاعل مع بعضها بعضًا من خلال قوى فيزيائية أساسية (Feynman, 1963)، والقوى الفيزيائية هي جميع العمليات العقلية التي تنشأ من تفاعلات مادية محكومة، فلا يوجد "شيء زائد" أو "جوهر روحي" خارج قوانين الفيزياء، وكل ما نسمّيه "تفكيرًا" هو في النهاية تيارات كهربائية وتغيرات كيميائية بين ملايين العصبونات، تتحكم فيها القوى الكهرومغناطيسية تحديدًا، فقد وضح "توماس هكسلي" أن العقل حركة ميكانيكية في الدماغ، يتحرك كما تتحرك الذرات في الكون، فالعقل ليس شيئا غير الجسد حين يفكر (هكسلي، 1954، ص 78)، وهذا التصور ينفي وجود أي "جوهر عقلي" منفصل عن المادة الفيزيائية للدماغ.

وطبقًا لهذا التصور، يمكن إرجاع جميع الظواهر العقلية في النهاية إلى التفاعلات الفيزيائية والكيميائية على المستويين الذري والجزيئي.

وذكر عالم الأعصاب الجزيئي "إريك كاندل" (نوبل 2000) أن جميع الوظائف العصبية، من أبسط رد فعل انعكاسي إلى أعقد عملية فكرية، تنتج عن النشاط المنسق لشبكات من الخلايا العصبية، وكل هذا يمكن فهمه بدلالة التفاعلات الكيميائية والفيزيائية على المستوى الجزيئي (Kandel, 2006, p. 9)، وهذا التصور ينفي أي وجود منفصل عن المادة الفيزيائية للدماغ.

لا تتوقف النظرية المادية الذرية عند حد اختزال الحالات العقلية إلى المادة، بل تذهب في بعض نسخها إلى الإنكار التام لوجود الظواهر العقلية كما نعرفها، وهذا الموقف يُعرف بـ "المادية الاستبعادية"، وهو يمثل التطبيق الأكثر صرامة للنظرية الذرية على مسألة العقل، ويعرّف "بول تشرشلاند" أحد أبرز الفلاسفة المعاصرين "المادية الاستبعادية" أنها "الأطروحة القائمة بأن تصورنا الشائع للظواهر النفسية يشكل نظرية خاطئة جذريًا، نظرية معيبة بشكل جوهري لدرجة أن كلًا من مبادئها والكيانات النظرية التي تفترضها سيتم في النهاية استبدالها، وليس اختزالها، بواسطة علم الأعصاب المكتمل" (Churchland, 1981, p. 67)، وهذا يعني أن الكون بكل ما فيه من ظواهر معقدة –بما في ذلك الوعي البشري والتجربة الذاتية والأفكار المجردة– قابل للاختزال التام إلى قوانين الفيزياء والكيمياء التي تحكم حركة الجسيمات الأولية.

إن التفسيرات المادية، سواء من الفلاسفة أو العلماء، تتفق على أن العقل هو نتاج لعمل الدماغ وأن جميع الظواهر العقلية يمكن تفسيرها في النهاية من خلال العمليات العصبية، مع اختلاف في مستوى هذا التفسير وتفاصيله.

ثانيًا: الأدلة العلمية:

ومن الأدلة العلمية التي تدعم النظرة المادية للعقل ما يلي:

الارتباط بين النشاط الدماغي والحالات العقلية:

يُعد الارتباط الوثيق بين النشاط الدماغي والحالات العقلية من أقوى الأدلة التي تدعم الرؤية الإلحادية، حيث أظهرت الدراسات العلمية المتعددة وجود علاقة سببية مباشرة بين التغيرات في النشاط العصبي والتغيرات في الحالات العقلية والسلوكية (Gazzaniga, 2018)، حيث قالت "نانسي كانويشر" عالمة الأعصاب الإدراكية الأمريكية: "لقد أظهرت أبحاث التصوير العصبي أن كل جانب من جوانب الإدراك والإحساس والتفكير يرتبط بنشاط في مناطق محددة من الدماغ... لا نجد أي دليل على وجود عقل منفصل عن الدماغ المادي" (Kanwisher & Downing, 1998, p. 57)، وأكد عالم الأعصاب "مايكل غازانيغا" في دراساته الرائدة على مرضى الدماغ المشطور أن الوعي والوظائف العقلية مرتبطة بشكل مباشر بمناطق محددة في الدماغ، حيث قال: "كل جانب من جوانب الخبرة الإنسانية يمكن تتبعه إلى نشاط عصبي محدد في الدماغ" (Gazzaniga, 2018, p. 89)، وذكر "جوزيف ليدو" أن "التغييرات في الكيمياء العصبية

تؤدي بشكل مباشر إلى تغييرات في الإدراك والمزاج والسلوك" (LeDoux, 2019, p. 312).

وتوضح دراسات التصوير العصبي الحديثة هذا الارتباط بشكل أكثر دقة؛ إذ يشير عالم الأعصاب الأمريكي "ريتشارد ديفيدسون" إلى أن الحالات العاطفية المختلفة ترتبط بأنماط نشاط عصبي محددة يمكن رصدها وقياسها، قائلًا: "نستطيع الآن أن نرى كيف تتجلى المشاعر والعواطف في أنماط نشاط عصبي محددة في مناطق مختلفة من الدماغ" (Davidson, 2012, p. 147).

تأثير الإصابات الدماغية على الوظائف العقلية:

يُعدّ تأثير الإصابات الدماغية على الوظائف العقلية دليلًا قويًا على صحة الرؤية الإلحادية للعقل، حيث تظهر الدراسات العلمية أن أي ضرر يصيب مناطق محددة في الدماغ يؤدي إلى تغيرات متوقعة ومحددة في القدرات العقلية والسلوكية، فقد وضح طبيب الأعصاب البريطاني "أوليفر ساكس" كيف أن الإصابات الدماغية تؤدي إلى تغييرات محددة في الوظائف العقلية والسلوكية، قائلًا: "كل إصابة دماغية تكشف عن العلاقة الحتمية بين بنية الدماغ ووظائفه العقلية" (Sacks, 1998, p. 83)، وقدم عالم الأعصاب "أنطونيو داماسيو" في دراسته الشهيرة لحالة فينياس غيج دليلًا قويًا على هذه العلاقة، فيقول: "أظهرت حالة غيج أن تلف مناطق محددة في الدماغ لا يؤثر فقط على الوظائف الحركية، بل يمتد تأثيره ليشمل الشخصية والسلوك الاجتماعي والقدرة على اتخاذ القرارات الأخلاقية" (Damasio, 1994, p. 78).

تأثير العقاقير على الحالات العقلية:

يُعدّ تأثير العقاقير والمواد الكيميائية على الحالات العقلية دليلًا قويًا يستند إليه أنصار الرؤية الإلحادية في تفسير ماهية العقل، حيث يظهر هذا التأثير أن التغيرات الكيميائية في الدماغ تؤدي مباشرة إلى تغيرات في الحالات العقلية والسلوكية، مما يؤكد الطبيعة المادية للعقل، فالأدوية النفسية تعمل من خلال تعديل تراكيز النواقل العصبية، ما يؤدي إلى تغيرات جذرية في المزاج والإدراك والسلوك، وقد قدمت عالمة الأعصاب والطبيبة الصيدلانية "كانداس بيرت" تفسيرًا دقيقًا لكيفية تأثير المواد الكيميائية على الدماغ من خلال دراستها للمستقبلات العصبية، حيث تقول: "إن قدرة المواد الكيميائية على تغيير الحالة العقلية من خلال ارتباطها بمستقبلات محددة في الدماغ تثبت أن الوعي والإدراك هما نتاج للتفاعلات الكيميائية العصبية" (Pert, 1997, p. 143).

تقدم هذه الأدلة التجريبية العلمية دعمًا للرأي القائل بأن العقل هو نتاج لعمليات الدماغ المادية، حيث تربط هذه الأدلة بصورة مباشرة بين النشاط العصبي في مناطق محددة من الدماغ والحالات العقلية المختلفة، وتظهر كيف يؤدي تلف أو تغيير هذا النشاط إلى اضطرابات في الوظائف العقلية، مما جعل الرؤية الإلحادية ترى أن الاتجاه المادي يقدم تفسيرًا منطقيًا علميًا لطبيعة العلاقة بين العقل والدماغ.

ثالثًا: قصور الرؤية الإلحادية:

على الرغم من وجود أدلة علمية تستند إليها الرؤية الإلحادية في رؤيتها للعقل، تواجه تحديات فلسفية وعلمية تُظهر قصورها عن تقديم تفسير لماهية العقل، فالقول "بأن العقل مجرد نتاج للمادة يقع في دور منطقي؛ إذ كيف نستخدم العقل المادي لإثبات أن العقل مادي؟ هذا يشبه محاولة رفع الشخص نفسه بحبل مربوط بحذائه" (طلعت، 2019، ص 156)، وكذلك ذكر "تسلا" حول ما يسميه بمعضلة التفسير الذاتي أنه "إذا كان العقل مجرد آلة بيولوجية، فكيف

يمكن لهذه الآلة أن تفهم نفسها وتطور نظريات عن طبيعتها؟ إن هذا المستوى من التفكير الانعكاسي يتجاوز قدرات أي نظام مادي مغلق" (Tesla, 2019, p. 89).

يواجه التفسير الداروينى للعقل إشكالية تتمثل في أن القدرات العقلية البشرية تتجاوز أكثر مما تتطلبه الحياة البدائية والبقاء البيولوجي، وقد أدرك "ألفريد راسل والاس" المؤسس المشارك لنظرية الانتخاب الطبيعي مع "داروين" "أن الدماغ البشري يمتلك طاقات كامنة لم تكن ضرورية أبدًا لحياته البدائية، وهي طاقات لا يمكن أن تكون قد تطورت بفعل الانتخاب الطبيعي" (Wallace, 1870, p. 359).

هذا التناقض بين القدرات العقلية الفعلية للإنسان ومتطلبات البقاء التطوري يشكل قصورًا جوهريًا في التفسير الداروينى، فالقدرة على التفكير المجرد، لحل المسائل الرياضية المعقدة، والتأمل الفلسفي، وإنتاج الفن والموسيقى –كلها قدرات لم تكن لها فائدة مباشرة في البقاء والتكاثر للإنسان البدائي، ولذلك يقول "ريتشارد لوونتين" إن "الانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يفسر القدرات العقلية التي تتجاوز متطلبات البقاء المباشرة" (Lewontin, 1998, p. 107).

كما أن العقل البشري يظهر قدرة على السلوك الأخلاقي والإيثار الذي قد يتعارض مع المصلحة الذاتية للفرد في البقاء والتكاثر، فالتضحية بالنفس من أجل الآخرين، أو الالتزام بمبادئ أخلاقية تحد من الفرص التكاثرية، هي سلوكات تتناقض مع المنطق الداروينى القائم على الأنانية الجينية، وقد اعترف "داروين" نفسه بصعوبة تفسير السلوك الإيثاري، قائلاً: "إن صعوبة تصور كيف أن السلوك الذي لا يخدم مصلحة الفرد يمكن أن ينشأ من الانتخاب الطبيعي تبدو لي كبيرة للغاية" (Darwin, 1871, p. 163).

وهناك مشكلة أخرى في التفسير الداروينى تكمن في التعقيد البنيوي والوظيفي للدماغ البشري الذي يمثل تحديًا كبيرًا آخر للتفسير الداروينى، القائم على الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي التدريجي، فالدماغ البشري يحتوي على حوالي ستة وثمانين مليار خلية عصبية، وكل خلية عصبية ترتبط بآلاف الخلايا الأخرى من خلال نقاط الاشتباك العصبي، مما يخلق شبكة من الاتصالات تفوق في تعقيدها أي نظام معروف في الكون، وهذا التعقيد ليس مجرد تعقيد كمي، بل هو أيضًا تعقيد نوعي، يتطلب تنسيقًا دقيقًا بين مكونات متعددة تعمل بشكل متكامل في اعتماده على الطفرات العشوائية كمصدر للتنوع الذي يعمل عليه الانتخاب الطبيعي.

لقد أدرك "تشارلز داروين" نفسه هذه الصعوبة، وعبَّر عنها في كتابه "أصل الأنواع" بـ"افتراض أن العين بكل ما تتميز به من ترتيبات لا تُضاهى لضبط البؤرة على مسافات مختلفة، ولإدخال كميات مختلفة من الضوء، ولتصحيح الانحراف الكروي واللوني، يمكن أن تكون قد تشكلت بفعل الانتخاب الطبيعي، مما يبدو – صراحة– أمرًا في أعلى درجات السخف" (Darwin, 1859, p. 186).

وإذا كانت العين تمثل هذا التحدي، فإن الدماغ البشري، بتعقيده الذي يفوق العين بمراحل كثيرة، يمثل تحديًا أكبر بكثير، حيث قال "داروين" في رسالة لآسا غراي عام 1860: "إن مجرد التفكير في العين يجعلني أشعر بالبرد في كل مرة" (Darwin, 1860, p. 154)، وأشار "مايكل بيهي" إلى مفهوم "التعقيد

غير القابل للاختزال" لوصف الأنظمة البيولوجية التي تتطلب وجود جميع أجزائها في وقت واحد لكي تعمل، فالدماغ البشري، بتشابكاته العصبية المعقدة والمتكاملة، يمثل نموذجًا واضحًا لهذا النوع من التعقيد (Behe, 1996, p. 39–45).

كما تواجه النظرية التطورية في تفسيرها للعقل مشكلة "الفجوة التطورية" بين أدمغة القردة العليا والإنسان، فعلى الرغم من أن الشمبانزي يشترك مع الإنسان في حوالي ثمانية وتسعين بالمائة من المادة الوراثية، يظل الفارق في القدرات العقلية بينهما هائل، فالإنسان وحده يمتلك لغة رمزية معقدة، وقدرة على الرياضيات المجردة، ووعيًا ذاتيًا متطورًا، في حين تفتقر القردة العليا إلى هذه القدرات، وهذا الفارق الكبير في القدرات العقلية، مع التشابه الكبير في المادة الوراثية، يشير إلى أن هناك عوامل أخرى غير الطفرات الجينية العشوائية تلعب دورًا في نشأة العقل البشري.

إن عالم الأحياء التطوري "ريتشارد لوونتين"، بوصفه أحد علماء التطور الملتزمين بالنظرية، يعترف أن هناك صعوبات كبيرة في تفسير تطور الوعي البشري من خلال الانتخاب الطبيعي وحده، حيث يقول: "إن الوعي هو الخاصية الأكثر إثارة للحيرة في العقل البشري، ولا يوجد لدينا حتى الآن نظرية مقنعة حول كيفية نشوئه من خلال العمليات التطورية" (Lewontin, 1998, p. 109).

ينتج عن هذا أنه لا ضمان للتفسير التطوري؛ لأن "الإيمان بعشوائية التطور يلزم منه عدم الثقة في قدرة الدماغ على اكتشاف الحقيقة الموضوعية؛ لأن هذه العشوائية تتحرك قدمًا تحت دافع الانتخاب الطبيعي لتعين الكائن الحي على البقاء... ولم تهتم بإنتاج جهاز قادر على معرفة الوجود بدقائقه وتعقيده" (عامري، 2018، ص 128)، ولأن "الحقيقة صناعة بيولوجية وليست كشفًا لما هو واقع خارج الذهن، فهي أثر شخصي لازم لبنية الدماغ الذي تطور بحثًا عن الاستجابة لشروط البقاء... دون استثناء؛ لأن الحاكم على عمل الدماغ ليس واقع الكون خارج الذهن، وإنما هو واقع الذهن الذي يصنع ظل الواقع" (عامري، 2018، ص 129).

يتضح مما سبق أن "دعوى إمكانية الرؤية الإلحادية مستحيلة؛ لأنها دعوى متناقضة ذاتيًا، فالإنسان من زاوية إلحادية حيوان لا يوثق في فهمه، وآلة عاجزة عن التفكير الذاتي؛ لأنه لا عقل للملحد ولا عقلانية في الإلحاد" (عامري، 2018، ص 130).

أما العقل من منظور النظرية الذرية، فيقود إلى الاعتقاد بأنه خصائص معقدة، ناشئة من تفاعلات بين مكونات ذرية، ولذلك قال الفيلسوف المادي "دانيال دينيت": "الوعي خاصية ناشئة من التنظيم المعقد للمادة، كما أن صلابة الماس خاصية ناشئة من الترتيب البلوري لذرات الكربون" (Dennett, 1991, p.374)، وهذا المفهوم يسمح للماديين بتفسير التعقيد الظاهري، دون الحاجة إلى افتراض وجود مواد أو قوى غير مادية، لكن صلابة الماس وذرات الكربون يمكن أن ترصدا، إلا أن الأمر مختلف في تفسير العقل، فالدماغ مرصود إلا أن العقل غير مرصود، وهذا فارقٌ يمنع تشبيه العقل بصلابة الماس.

كما تواجه النظرية الذرية ما يُعرف بمشكلة "الربط"، فالتجربة الواعية تتميز بكونها موحدة ومتماسكة، حيث نختبر العالم كمجموعة متكاملة من الأحاسيس والأفكار، وليس كمجموعة منفصلة من العمليات العصبية، وكيف يمكن لمليارات الخلايا العصبية المنفصلة أن تنتج تجربة موحدة؟ هذا السؤال يكشف

صعوبة أساسية في النموذج الذري (عثمان، 1985، ص 234-267)، حيث ذكر "آن تريسمان" أن "مشكلة الربط في أكثر صورها عمومية تتعلق بكيفية دمج العناصر التي تُرمّز بواسطة دوائر دماغية متميزة للإدراك واتخاذ القرار والعمل" (Treisman, 1996, p. 171-178)، وهذا القصور في التفسير المادي يشير إلى وجود "فجوة تفسيرية" بين الوصف الفيزيائي للدماغ والتجربة الذاتية للوعي، حيث تظهر "فجوة التفسير" حدود النموذج الاختزالي، ولذلك يقول "جوزيف ليفين": "يبدو أن هناك فجوة تفسيرية بين الوظائف والتجارب" (Levine, 1983, p. 354-361)، فتفسير كيفية نشوء التجربة الذاتية الواعية – "ما الذي يشبه أن تكون واعيًا؟"– يبقى مشكلة بعيدة عن متناول التفسير المادي البحت.

يبدو أن الأدلة التجريبية والعلمية –وإن كانت تدعم أن العقل في الدماغ– لا تقدم دليلًا قطعيًا على ذلك، فلا تزال بعض الجوانب الفيزيائية والميتافيزيقية للعقل لا تستطيع التجارب العلمية تأكيدها أو نفيها مما يجعل التجريب غير كافٍ، ويشير عدد من الفلاسفة والعلماء إلى هذه النقطة، حيث ذكر "ديفيد تشالمرز" أن "النظرية المادية تواجه صعوبات في تفسير الظواهر العقلية والوعي الذاتي؛ لأنها تعتمد فقط على الأدلة التجريبية والعلمية" (Chalmers, 1996, p. 93)، وذهب "جون سيرل" إلى أن "العلوم الطبيعية لا تستطيع تقديم تفسير كامل للظواهر العقلية الذاتية، مثل: الإحساس بالألم أو الفرح، حيث هناك جانب أول شخصي للخبرة لا يمكن اختزاله بالكامل إلى العمليات المادية" (Searle, 1992, p.122)، وأكد "جون هوسبرز" أن "التجارب العلمية والمادية لا تستطيع الاستغناء عن الميتافيزيقا في تفسير الظواهر العقلية والوعي الذاتي، حيث تبقى هناك فجوات وأسئلة لا تجيب عنها التجارب المادية، مما يجعل الميتافيزيقا ضرورية لتقديم تفسير أكثر شمولية" (Hospers, 2008, p.145).

لا تفسر النظريتان الداروينية والذرية وكل الرؤى الإلحادية كيف تنبثق العمليات العقلية من العمليات الدماغية، فهي في عروضها لا تخرج عن إطار وصف البنية الدماغية، أما ظهور العمليات العقلية فلا يوجد حتى الآن عالم مادي واحد يقدم ولو شيئًا من كيفية هذا الظهور.

نتائج الدراسة ومناقشتها:

توصلت الدراسة إلى أن الرؤية الإلحادية تستند في تفسيرها لماهية العقل إلى مجموعة من الأدلة العلمية المستمدة من النظرية الداروينية والنظرية الذرية والأدلة التجريبية المعاصرة من علم الأعصاب.

لكن الدراسة كشفت عن محدودية هذه التفسيرات في تقديم فهم شامل لماهية العقل، فهذه المحدودية تشير إلى أن الأدلة العلمية المتاحة حاليًا لا تدعم حصريًا الرؤية الإلحادية المادية في تفسير ماهية العقل، فالعلم يمكنه وصف الارتباطات بين الدماغ والعقل، لكنه لا يستطيع تفسير العلاقة السببية بينهما بشكل كامل، ولا يمكنه تفسير كيفية نشوء الوعي والتجربة الذاتية من العمليات المادية البحتة.

وهنا، يمكن القول إن العقل يتجاوز ما يمكن تفسيره من خلال النماذج المادية الاختزالية.

غير أن هذه الدعائم لا تقدم تفسيرًا كافيًا لما يلي:

الفجوة التفسيرية بين الوصف العصبي والتجربة الذاتية.

مشكلة الكيفيات المحسوسة Qualia)).

وحدة الوعي وترابطه.

ظهور الوعي من المادة غير الواعية.

وهذا ما يرجّح أن العقل ليس مجرد ظاهرة فيزيائية قابلة للاختزال الكامل.

التوصيات:

توصي الدراسة بالآتي:

إجراء مزيد من البحوث حول العلاقة بين الدماغ والعقل، مع الانفتاح على نماذج تفسيرية غير اختزالية.

دراسة الظواهر العقلية التي تتجاوز التفسيرات المادية البحتة، مثل: التجربة الذاتية والوعي الذاتي والإرادة الحرة، من منظورات متعددة التخصصات تجمع بين علم الأعصاب والفلسفة وعلم النفس، مع الأخذ بالبعد الميتافيزيقي في تفسير الظواهر العقلية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: المراجع باللغة العربية:

[1] داروين، تشارلز. (1998). أصل الأنواع (إسماعيل مظهر، مترجم). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (العمل الأصلي نشر في 1859).

[2] دوكينز، ريتشارد. (2001). صانع الساعات الأعمى. (مصطفى إبراهيم فهمي، مترجم). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

[3] طلعت، هيثم. (2019). الإيمان والصحة النفسية. القاهرة: دار الفكر العربي.

[4] طلعت، هيثم. (2020). العقل والوحي في الإسلام. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر.

[5] عامري، سامي. (2018). الإلحاد: مشكلة نفسية. الرياض: كوين للدراسات والأبحاث.

[6] عثمان، عبد الكريم. (1985). مشكلة الحرية. بيروت: دار النهضة العربية.

[7] هكسلي، توماس. (1954). الإنسان في الطبيعة. (إسماعيل مظهر، مترجم). القاهرة: مطبعة المعارف.

[8] هوسبرز، جون. (2008). مقدمة في التحليل الفلسفي. (ط4). ميتشل برس.

ثانيًا: المراجع باللغة الإنجليزية:

[1] Allman, J. M. (2000). Evolving Brains. New York: Scientific American Library.

[2] Behe, M. J. (1996). Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution. New York: Free Press.

[3] Chalmers, D. J. (1996). The Conscious Mind: In Search of a Fundamental Theory. New York: Oxford University Press.

[4] Chisholm, R. M. (1976). Person and Object: A Metaphysical Study. London: George Allen & Unwin.

[5] Churchland, P. M. (1981). Eliminative Materialism and the Propositional Attitudes. Journal of Philosophy, 78(2), 67-90.

[6] Churchland, P. S. (2002). Brain-Wise: Studies in Neurophilosophy. Cambridge, MA: MIT Press.

[7] Hospers, J. (2008). An Introduction to Philophical Analysis (4th ed.). Mitchell Press.

[8] Damasio, A. R. (1994). Descartes' Error: Emotion, Reason, and the Human Brain. New York: Putnam.

[9] Darwin, C. (1859). On the Origin of Species by Means of Natural Selection. London: John Murray.

[10] Darwin, C. (1860). Letter to Asa Gray. Darwin Correspondence Project, Letter no. 2814.

[11] Darwin, C. (1871). The Descent of Man and Selection in Relation to Sex. London: John Murray.

[12] Davidson, R. J., & Begley, S. (2012). The Emotional Life of Your Brain: How Its Unique Patterns Affect the Way You Think, Feel, and Live-and How You Can Change Them. New York: Hudson Street Press.

[13] Dennett, D. C. (1991). Consciousness Explained. Boston: Little, Brown and Company.

[14] Descartes, R. (1641). Meditations on First Philosophy. (J. Cottingham, Trans.). Cambridge: Cambridge University Press.

[15] Eccles, J. C., & Popper, K. (1977). The Self and Its Brain: An Argument for Interactionism. Berlin: Springer International.

[16] Feynman, R. P. (1963). The Feynman Lectures on Physics (Vol. I). Reading, MA: Addison-Wesley.

[17] Gazzaniga, M. S. (2005). The Ethical Brain. New York: Dana Press.

[18] Gazzaniga, M. S. (2018). The Consciousness Instinct: Unraveling the Mystery of How the Brain Makes the Mind. New York: Farrar, Straus and Giroux.
[19] Gonzales, L. A., et al. (2025). Cortical expansion in primate brain evolution. Nature Neuroscience, 28(1), 59-68.
[20] Kandel, E. R. (2006). In Search of Memory: The Emergence of a New Science of Mind. New York: W. W. Norton & Company.
[21] Kandel, E. R. (2007). Principles of Neural Science (5th ed.). New York: McGraw-Hill.
[22] Kanwisher, N., & Downing, P. (1998). Separating the Wheat from the Chaff. Science, 282(5386), 57-58.
[23] LeDoux, J. (2019). The Deep History of Ourselves: The Four-Billion-Year Story of How We Got Conscious Brains. New York: Viking.
[24] Levine, J. (1983). Materialism and Qualia: The Explanatory Gap. Pacific Philosophical Quarterly, 64(4), 354-361.
[25] Lewontin, R. (1998). The evolution of cognition: Questions we will never answer. In D. Scarborough & S. Sternberg (Eds.), An Invitation to Cognitive Science (Vol. 4, pp. 107-132). Cambridge, MA: MIT Press.
[26] Nagel, T. (2012). Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False. Oxford: Oxford University Press.
[27] Pert, C. B. (1997). Molecules of Emotion: Why You Feel the Way You Feel. New York: Scribner.
[28] Pinker, S. (1997). How the Mind Works. New York: W. W. Norton & Company.
[29] Sacks, O. (1998). The Man Who Mistook His Wife for a Hat and Other Clinical Tales. New York: Touchstone.
[30] Searle, J. R. (1992). The Rediscovery of the Mind. Cambridge, MA: MIT Press.
[31] Treisman, A. (1996). The binding problem. Current Opinion in Neurobiology, 6(2), 171-178.
[32] Tesla, Egon. 2019. The Metaphysics of Mind: Beyond Materialism. Academic Press, London, UK, 1st Edition.
[33] van Lommel, P., van Wees, R., Meyers, V., & Elfferich, I. (2001). Near-death experience in survivors of cardiac arrest: A prospective study in the Netherlands. The Lancet, 358(9298), 2039-2045.
[34] Wallace, A. R. (1870). The Limits of Natural Selection as Applied to Man. In Contributions to the Theory of Natural Selection (pp. 332-371). London: Macmillan and Co.